

المرأة في فكر السيد القائد؛ رؤية تربوية لصناعة الإنسان وبناء المجتمع

إعادة تشكيل الكثير من المفاهيم المرتبطة بالأسرة والهوية والأدوار الاجتماعية، الأمر الذي يستدعي وعيًا تربويًا متجددًا يحفظ للمرأة مكانتها الإنسانية ورسالتها الحضارية.

أبرز هذه التحديات الزعة الاستهلاكية التي سعت إلى اختزال قيمة المرأة في مظهرها الخارجي أوفي قدرتها على الجذب والإثارة، متجاهلة أبعادها الفكرية والروحية والإنسانية. وقد أدى هذا التوجه إلى تحويل المرأة في كثير من الأحيان إلى وسيلة لتحقيق مكاسب اقتصادية أو إعلامية، بدلاً من النظر إليها باعتبارها شريكاً في صناعة المعرفة وبناء المجتمع.

وفي هذا السياق، أكد القائد الشهيد أن من أخطر أشكال الظلم المعاصر للمرأة تحويلها إلى سلعة تخضع لمعايير السوق والاستهلاك، بعد أن منحها الإسلام مكانة قائمة على الكرامة الإنسانية والاستقلال المعنوي.

هذا وتواجه المرأة تحدياً آخر يتمثل في محاولات الفصل بين التقدم والالتزام القيمي، حيث يُصوّر أحياناً أن المحافظة على الهوية الدينية والأخلاقية تتعارض مع العلم والنجاح والمشاركة الاجتماعية. غير أن التجربة الإسلامية، قديماً وحديثاً، تؤكد أن المرأة قادرة على الجمع بين الأصالة والانفتاح الواعي، وبين الالتزام بقيمها والمساهمة الفاعلة في نهضة مجتمعها.

هذا وقد نبّه القرآن الكريم إلى أهمية الثبات أمام الضغوط الفكرية والثقافية التي قد تؤثر في هوية الإنسان، فقال تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ (هود/ ١١٢)، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران/ ١٣٩). وتؤكد هذه التوجيهات القرآنية أن الحفاظ على الهوية لا يعني الانغلاق أو التسحاب من الواقع، بل يعني امتلاك القدرة على التفاعل معه من موقع الثقة والوعي.

هنا تبرز أهمية التربية في تعزيز الهوية النسائية الأصيلة منذ المراحل الأولى من العمر، عبر بناء الثقة بالنفس، وتنمية الوعي النقدي تجاه الرسائل الإعلامية والثقافية وربط الفتيات بالنماذج الإسلامية المشرفة التي أثبتت قدرتها على الجمع بين الإيمان والنجاح والعبادة. فكما ازداد وعي المرأة بحقيقتها وقيمتها ودورها، أصبحت أقل عرضة للتأثر بالصور النمطية أو الضغوط الثقافية الوافدة.

في كلمات أمير المؤمنين^(ع) ما يؤكد ضرورة الوعي والبصيرة في مواجهة التحديات. فقد روي عنه قوله: ﴿لا خير في عبادة ليس فيها تفقه﴾، وهو توجيه يربط بين الإيمان الواعي والمعرفة العميقة، ويؤكد أن مواجهة الانحرافات الفكرية لا تتم بالشعارات وحدها، بل بالعلم والبصيرة والفهم الصحيح. إن بناء المرأة الواعية بهويتها، بشكل بعيها، المستفحة على معارف عصرها، يشكل أحد أهم مرتكزات الأمن الثقافي والتربوي للمجتمع. فالمرأة التي تمتلك رؤية واضحة لذاتها ورسالتها تصبح أكثر قدرة على تربية الأجيال، وأكثر حضوراً وتأثيراً في محيطها الاجتماعي، وأعد قدرة على المساهمة في بناء مجتمع متماسك يحافظ على أصالته وينفتح في الوقت نفسه على آفاق التطور والتقدم.

كلمة أخيرة

تكشف الرؤية التربوية للمرأة في فكر الإمام الشهيد منظومة متكاملة تنطلق من تكريم الإنسان الذي أرادته الله تعالى خليفة في الأرض، وتنظر إلى المرأة بوصفها شريكاً أساسياً في صناعة الإنسان وبناء المجتمع. فمكانة المرأة لا تستمد قيمتها من الأدوار التي تؤديها فحسب، بل من إنسانيتها ووعيتها ورسالتها، الأمر الذي يجعلها عنصرًا محوريًا في نهضة الأمة واستقرار المجتمع وتقدمه.

وقد أظهرت هذه الرؤية أن الأمومة ليست وظيفية بيولوجية محدودة، بل مشروعاً تربوياً وحضارياً لصناعة الأجيال، وأن المشاركة الاجتماعية للمرأة لا تتعارض مع هويتها القيومية، بل تزداد فاعلية حين تنطلق من وعي رسالي راسخ. كما قدمت السيدة فاطمة الزهراء^(ع) نموذجاً عملياً يجسد هذا التكامل بين الارتقاء الروحي، والنجاح الأميري، والمسؤولية الاجتماعية، لتبقى قدوةً متجددة للمرأة المسلمة في مختلف العصور. تبرز الحاجة إلى ترسيخ الوعي بمكانة المرأة ودورها التربوي والحضاري في ظل التحديات الثقافية والفكرية المعاصرة، وتعزيز ثقافتها بهويتها الإسلامية وقدرتها على الإسهام في صناعة المستقبل. فالمجتمع، وبين الارتقاء الروحي والحضور الواعي والمؤمنة برسالتها، إنما تضع الأساس المتين لبناء أجيال قادرة على حمل القيم وصناعة النهضة ومواجهة تحديات العصر بثبات وبصيرة.

من هنا فإن الاستثمار الحقيقي في مستقبل الأمة يبدأ من المرأة التي تصنع الوعي، وتربي الأجيال، وتحفظ القيم، وتسهم في بناء المجتمع؛ لتبقى شريكاً أصيلاً في مسيرة الاستخلاف وال عمران التي أرادها الله تعالى للإنسان.

يؤكد القائد الشهيد آية الله العظمى الإمام السيد علي الخامنئي (رض)، أن أعظم ما يمكن أن تقدمه المرأة للمجتمع هو صناعة الإنسان الصالح. معتبراً أن تربية الأجيال ليست عملاً فريداً محدود الأثر. بل مسؤولية تمتد تتأجها إلى مستقبل الأمة بأكملها. فالإنسان الذي ينشأ على القيم والإيمان والوعي داخل أسرته يصبح لاحقاً عنصراً فاعلاً في نهضة مجتمعه. الأمر الذي يجعل من دور الأم دوراً استراتيجياً في البناء الحضاري

رابعاً: السيدة الزهراء^(ع) نموذجاً للمرأة السالمة تحرص الرؤية التربوية الإسلامية على تقديم النماذج العملية إلى جانب المبادئ النظرية، لأن الإنسان يتعلم من القدوة بقدر ما يتعلم من الفكرة. ومن هنا احتلت السيدة فاطمة الزهراء^(ع) مكانة استثنائية في الفكر الإسلامي عمومًا، وفي فكر الإمام الشهيد على وجه الخصوص، بوصفها النموذج الأكمل للمرأة التي جمعت بين السمو الروحي، والوعي الفكري، والقيام بالمسؤوليات الأسرية والحضور الاجتماعي الرسالي. أشار القرآن الكريم إلى المنزلة الرفيعة لأهل البيت^(ع) في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (الأحزاب/ ٣٣)، كما نزلت فيهم آيات عديدة تظهر مكانتهم ودورهم في هداية الأمة. وفي هذا السياق تقدم السيدة الزهراء^(ع) بوصفها شخصيةً تربويةً متكاملة، لا اعتباراً بمرآة تاريخية فحسب، بل نموذجاً عملياً صالحاً للاقتداء في مختلف الأزمنة.

يؤكد قائد الأمة في العديد من خطباته أن عظمة الزهراء^(ع) لا تتحصر في جانب واحد من جوانب شخصيتها، بل تتجلى في قدرتها على تحقيق التوازن بين مختلف المسؤوليات. فقد كانت عابدة عارفة بالله، وزوجة مثالية، وأما صنعت أعلاماً من الإعلام الإنسانية، كما كانت صاحبة موقف ووعي ومسؤولية تجاه قضايا أمتها.

كما تكشف سيرة الزهراء^(ع) عن أن التربية الحقيقية لا تقتصر على توجيه الأبناء بالكلمات، بل تقوم على صناعة البيئة الإيمانية التي ينمو فيها الإنسان. فقد استطاعت أن تربي في بيتها مدرسة تربوية خرج منها الإمام الحسن والإمام الحسين والسيدة زينب عليهم السلام، وهم من أعظم الشخصيات التي أثرت في مسار التاريخ الإسلامي. وهذا ما يبرز الأثر العميق للأمة الواعية في صناعة الشخصيات الرسالية. كما أن حضورها الاجتماعي والسياسي يرد على الرسول^(ص) يقدم نموذجاً للمرأة التي تمتلك وعياً بقضايا مجتمعها، وتحمل مسؤوليتها في الدفاع عن الحق والمبادئ. فخطبتها المعروفة في المسجد لم تكن مجرد موقف عاطفي، بل كانت خطاباً واعياً يجمع بين المعرفة الدينية والبصيرة الاجتماعية والشجاعة الأخلاقية.

رُوي عن الإمام الحسن العسكري^(ع) قوله: «نحن حجج الله على خلقه، وفاطمة حجة علينا»، وهو تعبير يكشف عن المقام المعنوي العظيم الذي حظيت به الزهراء^(ع)، وعن عمق شخصيتها الإيمانية والرسالية.

هنا يرى الإمام الشهيد أن المرأة المسلمة المعاصرة ليست مطالبة بتقليد تفاصيل الحياة التاريخية للزهراء^(ع) بقدر ما هي مدعوة إلى استلهام قيمها ومبادئها؛ كالعلم والعبادة والعفة والمسؤولية والشجاعة والتضحية والإحساس بقضايا الأمة. فالنموذج الفاطمي لا ينتمي إلى الماضي، بل يمتلك قدرة دائمة على الإلهام والتوجيه في مواجهة التحديات المعاصرة. وبذلك تمثل السيدة الزهراء^(ع) صورة المرأة التي نجحت في الجمع بين بناء الأمة وبناء المجتمع، وبين الارتقاء الروحي والحضور الاجتماعي، لتبقى نموذجاً تربوياً وحضارياً تستمد منه المرأة المسلمة معالم هويتها ورسالتها في الحياة.

خامساً: التحديات المعاصرة أمام المرأة وسبل تعزيز هويتها التربوية تواجه المرأة في العصر الحديث جملة من التحديات الفكرية والثقافية والاجتماعية التي فرضتها التحولات المتسارعة في وسائل الإعلام والاتصال وأنماط الحياة المعاصرة. وقد أسهمت هذه التحولات في

مبدأ يربط مكانة الإنسان بما يقدمه من علم وعباءة وإبداع، لا بنوعه أو مظهره أو موقعه الاجتماعي. كما روي عن الإمام الصادق^(ع): «كونوا دعاة للناس بغير أسننكم»، وهو توجيه يبرز أهمية القدوة العملية في صناعة الوعي وتوجيه المجتمع.

من أقوال الإمام الشهيد: «أن أهم بناء هو بناء الإنسان. ليس بناء جسم الإنسان فقط، بل بناء عواطف الإنسان وأخلاقه. أن يربين في أحضانهن بشرًا دون عقد، وأنسأناً صحيحاً وسالمًا تلك هي أهم قيمة لعمل المرأة».

إن المرأة الواعية تمتلك قدرة استثنائية على التأثير في محيطها الأسري والاجتماعي معاً، فهي تنقل القيم إلى أبنائها، وتساهم في نشرها داخل مجتمعها، وتشارك في معالجة التحديات الفكرية والثقافية التي تواجه الأجيال الجديدة. من هنا تصبح مساهمتها في بناء الوعي الاجتماعي جزءاً لا ينفصل عن رسالتها التربوية، بل امتداداً طبيعياً لها.

وعليه، فإن بناء المجتمع الصالح لا يتحقق من خلال جهود الرجال وحدهم أو النساء وحدهن، بل من خلال تكامل الأدوار وتضافر الطاقات في إطار رؤية إيمانية مشتركة تجعل من الإنسان رجلاً كان أم امرأة. مسؤولاً عن النهوض بمجتمععه والدفاع عن قيمه وهويته الحضارية.

أمام حضور المرأة وأطورها، بل تعتبرها أحد أعظم مبادئ العطاء الإنساني. فالقيمة الحقيقية للأمومة لا تكمن في الإنجاب بحد ذاته، وإنما في القدرة على تحويل البيت إلى بيئة حاضنة للإيمان والأخلاق والعلم والمحبة. ومن هنا يصبح نجاح الأم في بناء شخصية متوازنة ومؤمنة وواعية إنجازاً يتجاوز أثره حدود الأسرة ليصل إلى المجتمع بأسره. لعل النموذج الأمي لهذه الأمومة الرسالية يتمثل في السيدة فاطمة الزهراء^(ع) التي جمعت بين العبادة والعلم والجهاد والتربية، وقدمت للبشرية نموذجاً فريداً في صناعة الأبناء العظاما، فالإمام الحسن والإمام الحسين والسيدة زينب عليهم السلام لم يكونوا نتاج بيئة عادية بل ثمرة مدرسة تربوية صنعتها أم امتلكت الوعي الإيماني والرسالي الكامل. وعليه، فإن الاستثمار الحقيقي في بناء المجتمعات لا يبدأ من المؤسسات الكبرى فحسب، بل يبدأ من الأسرة، ومن الأم على وجه الخصوص. فكل مشروع إنصاحي أو حضاري يحتاج إلى إنسان يحمل قيمه ويجسد أهدافه، وهذا الإنسان يتشكل أولاً في حضان وعي المرأة بمكانتها التي أرادها الله لها، وازدادت قدرتها على أداء رسالتها التربوية والاجتماعية والحضارية بفاعليتها ووعي.

ثانياً: الأمومة بوصفها صناعة الإنسان وبناء المجتمع

لا تقتصر رسالة المرأة في المنظور الإسلامي على نطاق الأسرة، على الرغم من أهمية هذا الدور ومحوريته، بل تمتد لتشمل الإسهام في بناء الوعي الاجتماعي والثقافي والأخلاقي داخل المجتمع. فالمرأة التي تساهم في تربية الأجيال قادرة أيضاً على أن تكون شريكاً فاعلاً في نشر المعرفة وتعزيز القيم والمشاركة في مختلف مجالات الحياة التي تحتاج إلى طاقاتها وقدراتها. كما يؤكد القرآن الكريم هذه الشراكة في المسؤولية الاجتماعية حين يقول تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ (التوبة/ ٧١).

فالأية الكريمة لا تتحدث عن مسؤولية الرجال وحدهم، بل تجعل المرأة شريكاً في حمل الرسالة الاجتماعية والأخلاقية للمجتمع المؤمن، بما يعكس تحمله من مشقة وعطاء في سبيل أبنائها، قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَسَنَةً إِنَّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ﴾ (لقمان/ ١٤). كما قال سبحانه: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَسَنَتُهُ لِمَنْ كَرِهَا وَالْوَضْعَةُ كَرِهًا﴾ (الأحقاف/ ١٥). ولا يقتصر هذا التكريم على الجهد الجسدي الذي تبذله الأم، بل يمتد إلى الاعتراف بلورها العميق في بناء شخصية الأبناء وإعدادهم لتحمل مسؤولياتهم في الحياة.

يؤكد القائد الشهيد آية الله العظمى الإمام السيد علي الخامنئي^(ع) في هذا السياق أن أعظم ما يمكن أن تقدمه المرأة للمجتمع هو صناعة الإنسان الصالح، معتبراً أن تربية الأجيال ليست عملاً فريداً محدود الأثر، بل مسؤولية تمتد نتائجها إلى مستقبل الأمة بأكملها. فالإنسان الذي ينشأ على القيم والإيمان والوعي داخل أسرته يصبح لاحقاً عنصراً فاعلاً في نهضة مجتمعه، الأمر الذي يجعل من دور الأم دوراً استراتيجياً في البناء الحضاري.

تستجيب هذه الرؤية مع ما ورد من آيات في آية البيت^(ع) من التأكيد على أهمية البيئة التربوية الأولى في صناعة الشخصية. فقد روي عن الإمام الصادق^(ع): «بادروا أحداثكم بالحديث قبل أن تسبقكم إليهم بالمرجة»، في إشارة إلى ضرورة المبادرة في بناء الفكر والوعي منذ المراحل الأولى من العمر. كما روي عن أمير المؤمنين علي^(ع): «وإنما قلب الحدث كالأرض الخالية، ما ألقى فيها من شيء، فإبلة»، وهو نص تربوي عميق يبرز أهمية السنوات الأولى في تشكيل شخصية الإنسان.

لا تنظر الرؤية الإسلامية إلى الأمومة باعتبارها عائقاً



السلام في تأكيدهم على الكرامة الإنسانية المشتركة بين الناس. فقد روي عن أمير المؤمنين علي^(ع) قوله: «الناس صنفان: إما تخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق»، وهي قاعدة تؤسس لنظرة إنسانية تتجاوز كل أشكال التمييز والانتقاص.

إن اختزال المرأة في بعض أدوارها الاجتماعية أو البيولوجية يؤدي إلى إغفال بعدها الإنساني الأعمق، بينما تؤكد الرؤية الإسلامية أن جميع الأدوار التي تؤديها المرأة تكتسب قيمتها من إنسانيتها أولاً فهي أم ومرية وعالمة ومفكرة وفاعلة في مجتمعها، لكن هذه الأدوار جميعاً تنطلق من حقيقة كونها إنساناً مكرماً حقله الله مسؤولية إعمار الأرض والسعي نحو الكمال.

من هنا، فإن أي مشروع تربوي يسعى إلى بناء شخصية المرأة المسلمة، لا يبدأ من ترسيخ شعورها بكرامتها الإنسانية وثقافتها بقيمتها الذاتية، بعيداً عن ثقافة الاستهلاك أو المقارنات التي تحصر قيمة الإنسان في مظهره أو موقعه الاجتماعي. فكما ازداد وعي المرأة بمكانتها التي أرادها الله لها، وازدادت قدرتها على أداء رسالتها التربوية والاجتماعية والحضارية بفاعليتها ووعي.

ثانياً: الأمومة بوصفها صناعة الإنسان وبناء المجتمع

تعد الأسرة في الرؤية الإسلامية البيئة الأولى لتكوين شخصية الإنسان، وفي قلب هذه البيئة تحل الأم موقعاً محورياً في عملية التربية والتنشئة. فالأم ليست مجرد راعية لشؤون الأبناء أو ملية لحاجاتهم المادية والعاطفية، بل هي المرية الأولى التي تساهم في تشكيل الوعي والقيم والاتجاهات التي ترافق الإنسان طوال حياته. ومن هنا اكتسبت الأمومة في الفكر الإسلامي منزلة رفيعة، باعتبارها رسالة إنسانية وتربوية تتجاوز حدود الوظيفة الطبيعية إلى دور حضاري مؤثر في صناعة الأجيال.

وأولى القرآن الكريم عناية خاصة بمقام الأم، فربط الإنسان بالهبا الإحسان إلى والديه عمومًا، وذكرهما تحمله من مشقة وعطاء في سبيل أبنائها، قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَسَنَةً إِنَّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ﴾ (لقمان/ ١٤). كما قال سبحانه: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَسَنَتُهُ لِمَنْ كَرِهَا وَالْوَضْعَةُ كَرِهًا﴾ (الأحقاف/ ١٥). ولا يقتصر هذا التكريم على الجهد الجسدي الذي تبذله الأم، بل يمتد إلى الاعتراف بلورها العميق في بناء شخصية الأبناء وإعدادهم لتحمل مسؤولياتهم في الحياة.

يؤكد القائد الشهيد آية الله العظمى الإمام السيد علي الخامنئي^(ع) أهمية خاصة في بناء الشخصية الإنسانية، والفاعلية الاجتماعية، والدور الرسالي في صناعة الأجيال.

لا تنظر هذه الرؤية إلى المرأة باعتبارها عنصرًا هامشيًا في حركة المجتمع، بل تعدها شريكاً أساسياً في عملية النهضة الحضارية، انطلاقاً من دورها المحوري في الأسرة والتربية وبناء الوعي الثقافي والأخلاقي. فالمرأة، وفق هذا المنظور، ليست مجرد متلقية للتربية، وإنما هي صانعة لتربية، وليست موضوعاً للتغيير فحسب، بل أحد أهم صانعيه.

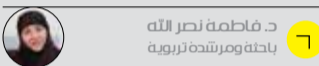
من هنا، تسعى هذه المقالة إلى تسليط الضوء على أبرز المرتكزات التربوية في فكر الإمام الشهيد حول المرأة، وبيان انعكاساتها على بناء الشخصية الإنسانية، وتماسك الأسرة، واعداد المجتمع القادر على النهوض بمسؤولياته الحضارية في مواجهة التحديات المعاصرة.

أولاً: المرأة قيمة إنسانية قبل أن تكون دوراً اجتماعياً

تنطلق رؤية الإسلام للمرأة من حقيقة أساسية تتمثل في إنسانيتها الكاملة وكرامتها التي منحها الله تعالى لها بوصفها إنساناً قبل أي اعتبار آخر. فالمرأة في المنظور القرآني ليست كائنًا تابعاً للرجل ولا عنصرًا ثانويًا في حركة الحياة، وإنما شريك في التكليف والمسؤولية والسير نحو الكمال الإنساني. ولذلك لم يجعل القرآن الكريم معيار التفاضل بين البشر قائماً على الذكورة أو الأنوثة، بل على التقوى والعمل الصالح، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الحزاب/ ٣٥)، وقال سبحانه: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاتٍ طَيِّبَةً﴾ (النحل/ ٩٧).

يؤكد الإمام الشهيد من هذا المنطلق، أن القيمة الحقيقية للمرأة لا تقاس بالمظاهر الخارجية وبمقدار حضورها الاستهلاكي في المجتمع، بل بما تمتلكه من إنسانية ووعي وقدرة على أداء رسالتها في الحياة. وفي هذا السياق يشير إلى أن «الإسلام ينظر إلى المرأة والرجل نظرة إنسانية واحدة، ويعتبر كليهما قادرين على بلوغ أعلى مراتب الكمال الإلهي».

تستجيب هذه الرؤية مع ما ورد عن أهل البيت عليهم



د. فاطمة نصر الله باحثة ومدرسة تربوية

تحل قضية المرأة موقعاً محورياً في الفكر التربوي الإسلامي؛ إذ تمثل المرأة ركناً أساسياً في عملية بناء الإنسان وصياغة الوعي الفردي والاجتماعي. وقد أولى القرآن الكريم عناية خاصة بالمرأة بوصفها شريكاً كاملاً في حمل مسؤولية الاستخلاف الإلهي، فجعل معيار التفاضل بين البشر قائماً على التقوى والعمل الصالح لا على النوع أو الجنس، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ﴾. ومن هذا المنطلق، تشكل حضور المرأة في المشروع الحضاري الإسلامي أحد المرتكزات الرئيسة في بناء المجتمع المؤمن القادر على مواجهة التحديات وصناعة المستقبل.

في ظل التحولات الثقافية والاجتماعية المعاصرة، وما رافقها من جدل واسع حول مكانة المرأة وأدوارها ووظيفتها في المجتمع، برزت الحاجة إلى إعادة قراءة الرؤية الإسلامية للمرأة قراءة تتجاوز الصور النمطية والاختزالية، وتكشف عن أبعادها الإنسانية والتربوية والحضارية. وفي هذا السياق، تكتسب رؤية القائد الشهيد آية الله العظمى الإمام السيد علي الخامنئي أهمية خاصة؛ إذ تنطلق من فهم عميق للإنسان ورسالة الإسلام في بناء الفرد والمجتمع، وتقدم تصوراً متكاملًا للمرأة لجمع بين الكرامة الإنسانية، والفاعلية الاجتماعية، والدور الرسالي في صناعة الأجيال.

لا تنظر هذه الرؤية إلى المرأة باعتبارها عنصرًا هامشيًا في حركة المجتمع، بل تعدها شريكاً أساسياً في عملية النهضة الحضارية، انطلاقاً من دورها المحوري في الأسرة والتربية وبناء الوعي الثقافي والأخلاقي. فالمرأة، وفق هذا المنظور، ليست مجرد متلقية للتربية، وإنما هي صانعة لتربية، وليست موضوعاً للتغيير فحسب، بل أحد أهم صانعيه.

من هنا، تسعى هذه المقالة إلى تسليط الضوء على أبرز المرتكزات التربوية في فكر الإمام الشهيد حول المرأة، وبيان انعكاساتها على بناء الشخصية الإنسانية، وتماسك الأسرة، واعداد المجتمع القادر على النهوض بمسؤولياته الحضارية في مواجهة التحديات المعاصرة.

أولاً: المرأة قيمة إنسانية قبل أن تكون دوراً اجتماعياً

تنطلق رؤية الإسلام للمرأة من حقيقة أساسية تتمثل في إنسانيتها الكاملة وكرامتها التي منحها الله تعالى لها بوصفها إنساناً قبل أي اعتبار آخر. فالمرأة في المنظور القرآني ليست كائنًا تابعاً للرجل ولا عنصرًا ثانويًا في حركة الحياة، وإنما شريك في التكليف والمسؤولية والسير نحو الكمال الإنساني. ولذلك لم يجعل القرآن الكريم معيار التفاضل بين البشر قائماً على الذكورة أو الأنوثة، بل على التقوى والعمل الصالح، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الحزاب/ ٣٥)، وقال سبحانه: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاتٍ طَيِّبَةً﴾ (النحل/ ٩٧).

يؤكد الإمام الشهيد من هذا المنطلق، أن القيمة الحقيقية للمرأة لا تقاس بالمظاهر الخارجية وبمقدار حضورها الاستهلاكي في المجتمع، بل بما تمتلكه من إنسانية ووعي وقدرة على أداء رسالتها في الحياة. وفي هذا السياق يشير إلى أن «الإسلام ينظر إلى المرأة والرجل نظرة إنسانية واحدة، ويعتبر كليهما قادرين على بلوغ أعلى مراتب الكمال الإلهي».

تستجيب هذه الرؤية مع ما ورد عن أهل البيت عليهم